

## إذ الاسمية

تقع إذ في بعض الأساليب العربية اسماً، وفي هذه الحالة، تحمل معنى الظرفية وتقع حرفاً لتحمل معاني أخرى ستتضح لنا عند التعرض لدراستها، وتتناول أولاً إذ الاسمية، فإذا فرغنا منها نتناول بالبحث والدراسة إذ بين الحرفية والاسمية ثم إذ الحرفية.

### أولاً: إذ الاسمية :

يذكر النحويون أن إذ الاسمية هي إذ الظرفية، ويحتجون لاسميتها: أنها تقبل التنوين مثل: يومئذ، وحينئذ، وقبورها التنوين دليل الاسمية. ومما يؤكد اسميتها أنها تقع خبراً حينما تقول: إخلاصك إذ بدأ العمل، فـ «إذ» في هذا المثال ظرف يعرب خبراً للمبتدأ: «إخلاصك».

ويضيف النحويون دليلاً ثالثاً على اسميتها، وهو الإضافة إليها كقوله تعالى: «بعد إذ هديتنا» (٦)، وذلك لأن إذ مضافة إلى الجملة الفعلية وهي: «هديتنا» والإضافة من خصائص الأسماء.

يقول السيوطي مستدلاً على اسمية إذ مانصه: «والدليل على اسميتها قبولها: التنوين، والاختبار بها، نحو: مجيئك إذ جاء زيد، والإضافة إليها بلا تأويل نحو: «بعد إذ هديتنا» (٧).

وينص صاحب الجنى الدانى على اسميتها بدليل رابع يضيفه إلى الأدلة السابقة وهو: «إبدالها من الاسم نحو: رأيتك أمس إذ جئت» (٨)، فـ «إذ» في هذا بدل من «أمس»، والبدل يتبع المبدل منه.

### لزوم بنائها :

وإذ التي تحمل معنى الاسمية أو الظرفية مبنية على السكون، ودليل بنائها ما يأتي :

أ - وضعها على حرفين .

ب - افتقارها إلى الجمل التي بعدها .

ج - افتقارها إلى التنوين المسمى : تنوين العوض الذي يقوم مقام الجملة مثل : (٩) يومئذ، حينئذ .

ويضيف ابن يعيش على هذه الأدلة أدلة أخرى ساقها ليقرّر في ضوئها بناء إذ ، وهى في الحقيقة أدلة منطقية تقوم على التعليل، ومنهج التحليل. يقول ابن يعيش :

«فأما إذ فإنها تقع على الأزمنة الماضية كلها، مبهمة لاختصاصها ببعضها دون بعض، فاحتاجت لذلك إلى ما يوضحها. ويكشف عن معناها، وإيضاحها يكون بجملة بعدها، فصارت بمنزلة بعض الاسم، وضارعت «الذي» والأسماء الناقصة المحتاجة إلى الصلات، لأن الأسماء موضوعة للدلالة على المسميات، والتمييز بين بعضها وبعض، فإذا وجد منها ما يتوقف معناه على ما بعده حلّ مع ما بعده من تمامه محل الاسم الواحد، وصار هو بنفسه بمنزلة بعض الاسم، وبعض الاسم مبنى، لأن بعض الاسم لا يوضع للدلالة على المعنى» (١٠).

وبهذا التحليل القويّ أكد ابن يعيش بناء إذ.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن حول بناء إذ هو: لماذا كسرت الدال عند تنوين العوض القائم مقام الجملة؟

وذلك إذا قلنا : حينئذ، و يومئذ، لابدّ من كسر الدال، فما السر في كسر هذه الدال؟

جمهور النحويين يجيبون عن هذا التساؤل فيقولون : «وإنما كسرت الدال لالتقاء الساكنين» (١١).

ولتفسير رأى جمهور النحويين نقول: الساكنان هما: سكون ذال «إذ»، وسكون التنوين، فتخلص من التقاء الساكنين بكسر الدال.

ومع هذا التفسير الواضح لكسر ذال إذ عند الجمهور، فإن الأخص له رأى آخر، فما رأيه؟ ذلك هو ما سنعرضه في النقطة التالية - -

## رأى الأخصف :

لم يرتض الأخصف هذا التعليل السابق لجمهور النحويين، لأنه يرى أن كسرة إذ ليست للتخلص من التقاء الساكنين، وإنما هي كسرة إعراب. ودليله في هذا الرأي أن: «إذ إنما بنيت لإضافتها إلى الجملة، فلما حذقت الجملة عاد إليها الإعراب فجزت بالإضافة» (١٢).

ومعنى ذلك: أن إذ بنيت لافتقارها إلى جملة تضاف إليها وهذا هو علة بناء إذ عند الأخصف وغيره، فإذا ما حذف المضاف إليه، وهو الجملة وعوض عنها التثوين، رجع الإعراب إلى إذ، فهي مجرورة في المثالين: يومئذٍ وحينئذٍ بإضافة يوم إليها، والمضاف إليه معرب مجرور، ذلك هو قحوى رأيه، وملخص مذهبه. وهذا الرأي أو المذهب يحتاج إلى نقاش، وذلك ما سنتناوله في النقطة التالية :

## مناقشة رأى الأخصف :

يبدو في رأى الأخصف لأول وهلة، وجاهة التعليل، وقوة الدليل، ولكن يحذ من وجاهة التعليل، ويضعف من قوة التذليل هو أن سبب بناء إذ في رأيه هو الإضافة إلى الجملة، والإضافة إلى الجملة ليست هي السبب الفعال في بناء إذ، فهناك أسباب أخرى للبناء سبق الحديث عنها كوضعها على حرفين، ولكونها ضارعت الأسماء الناقصة مثل الذى كما تحدث ابن يعيش فيما سبق.

وقد قرنا سابقاً أن من أسباب بناء إذ هو الافتقار إلى الجملة أى الحاجة إليها ليكمل معناها، وتتضح دلالتها كحاجة الموصول إلى الصلة وفرق بين الإضافة والافتقار، لأن كثيراً من الظروف معربة حالة الإضافة فلو كانت الإضافة هي السبب لبنيت هذه الظروف، فلو قلنا مثلاً:

سافرت يوم الخميس، ف «يوم» ظرف معرب منصوب بالفتحة، وليس مبنياً بسبب الإضافة.

لهذا فإن المرادى كان على حق في رده على الأخفش بقوله :

«إن سبب بنائها ليس هو الإضافة إلى الجملة، وإنما هو افتقارها إلى الجملة، والافتقار عند حذف الجملة أبلغ، فالبناء حينئذ أولى» (١٣) ورد المرادى يحتاج إلى إيضاح بالنسبة للقارئ غير المتخصص حتى يعم الانتفاع بهذا البحث في أسلوب نحن في أشد الحاجة إلى معرفته، وكشف معانيه وذلك لتكراره في فن الكتابة، وفن القول معاً، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

يدور رأى المرادى في البناء حول الافتقار، وأد لأنها من الظروف المبهمة تحتاج إلى إيضاح يوضح هذا الابهام، ويحد من غموضه. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى جملة تليها، لتكشف عن إيهامها، وكان سبب الافتقار إلى الجملة التي بعدها هو سبب البناء، فعند حذف الجملة، والتعويض عنها بتنوين العوض، رجع إليها الغموض مرة أخرى، وإن كان في هذه الحالة أقل لقيام التنوين مقام الجملة، ولهذا فإنها في حالة افتقارها إلى الجملة بُيئت، وزاد الافتقار أكثر عند حذف الجملة، فكان البناء أولى، لأن الافتقار إلى الجملة عند عدم وجودها أبلغ من الافتقار إلى الجملة حالة وجودها.

ورد المرادى في الواقع على الأخفش رد فلسفى منطقى.

وإذا كان الأخفش لا يذعن لهذا الرد مع أنه سلك مسلك الفلسفة والمنطق في رأيه حيث قرر أن من أسباب البناء الإضافة إلى الجملة فإذا ما زالت الإضافة زال البناء، وكان رد المرادى من جنس ما ذهب إليه الأخفش حيث التزم مثله مسلك الفلسفة والمنطق — فإن هناك أدلة أخرى تقوم على السماع والرواية بعيدة عن منطق الفلسفة والتعليل.

من هذا الأدلة : قول أبى ذؤيب الهذلى :

نهيتك عن طلابك أم عمرو بعاقبة وأنت إذ صحيح (١٤)  
وموطن الاستشهاد بهذا البيت هو كسردال: إذ مع التنوين،

ولاموجب للكسر غير التقاء الساكنين، فليس لـ «إذ» مضاف تضاف إليه، وتجرّ بسببه بالكسر كما كانت شبهة ذلك محققة في يومئذٍ، وحينئذٍ، لوجود المضاف فيهما وهو يوم، وحين.

ومن هذه الأدلة أيضاً في الرد على الأخفش ونقده هذا التحليل الرائع الذي ذكره ابن جنى في معرض رده على الأخفش، وتعليقه على كسر «إذ» في البيت السابق، وهو تحليل يحمل في طياته قوة الدليل، ووضوح الحجّة، وسلامة البرهان يقول ابن جنى:

«ومن وجوه التنوين أن يلحق عوضاً من الإضافة نحو: يومئذ، وليلتئذ، وساعتئذ، وحينئذ، وكذلك قول الشاعر:

### \* وَأَنْتِ إِذٍ صَاحِبُحُ \*

ألا ترى أن «إذ» ليس قبلها شيء، فأما قول أبي الحسن — [يعنى الأخفش] — : إنه جرّ «إذ» لأنه أراد قبلها: «حين» ثم حذفها، وبقي الجر فساقط، ألا ترى أن الجماعة قد أجمعت على أن: إذ، وكم، وقرن من الأسماء المبنية على الوقف.

وقد قال أبو الحسن نفسه — من بعض التعاليق عنه في حاشية الكتاب: بعد كم، وإذ من التمكن أن الاعراب لم يدخلها قط، فهذا تصريح منه ببناء إذ، وهو اللائق به، والأشبه باعتقاده، وذلك القول الذي حكيناه عنه شيء قاله في كتابه الموسوم بمعاني القرآن، وإنما هو شبيه بالسّهومنه «(١٥).

ولم يكتف ابن جنى بهذا التحليل الرائع في استدلاله على بناء «إذ» بل ذهب يلتمس الدليل تلو الدليل، ليقوى رأيه، ويدافع عن فكره حتى يبلغ ما يريد. يقول ابن جنى: «و يؤيد ما ذكرته من بناء إذ أنها إذا أضيفت مبنية نحو قوله: «إذ الأغلالُ في أعناقهم» (١٦)، «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت (١٧) فـ «إذ» في هذا ونحوه مضافة إلى الجمل، وموضعها نصب، وهى كما ترى مبنية.

فإذا كانت في حال إضافتها إلى الجمل مبنية من حيث كانت الإضافة أن تقع على الأفراد فهى إذا لم تضاف في اللفظ أصلاً أجدراً باستحقاق البناء. ويزيدك وضوحاً قراءة الكسائي: «من عذاب يؤمئذ»، (١٨) فبنى على الفتح لما أضافه إلى غير متمكن».

ويختم ابن جنى أدلته بدليل يرده به سؤال معترض على بناء إذ لتوهم قام في نفسه، وفهم خاطيء استبد بعقله، فيقول:

«فإن قيل: بنيت إذ من حيث كانت غاية منقطعاً منها ما أضيفت إليه أو من حيث إضافتها إلى جملة تجرى الإضافة إليها مجرى لا أضافة، فهلا أعربت لما أضيفت إلى المفرد من نحو قولهم: فعلت إذ ذاك؟ قلت: هذه مغالطة، فإن «ذاك» ليس مجروراً بإضافة إذ إليه، وإنما «ذاك» مبتدأ حذف خبره تخفيفاً، والتقدير: إذ ذاك كذلك، فالجملة هى التي في موضع جر» (١٩).

من هذه النصوص التي سجلها ابن جنى يتأكد بناء إذ، وهى كما قلت، نصوص تحمل في طياتها قوة الدليل، فـ «إذ» كُسرَت ذالها في بيت الشاعر لالتقاء الساكنين، لأنها ليس قبلها شيء يوجب جرّها.

وبناء إذ أمر اعترفت به الجماعة ويعنى بها، جماعة النحويين أو بعبارة أخرى جمهورهم، لأنها مثل مَنْ، وكم من حيث البناء على الوقف، ولا يستطيع أحد أن يقول: إن كم معربة حينما يدخل عليها جر مثل قولهم: بكم درهم اشتريت لأنها باقية على سكونها وكذلك القول في مَنْ إذا دخل عليها جاز.

على أن سهم النقد كان نافذاً حينما وجهه إلى الأخص حيث رماه بالسهو والغفلة، لأنه علق في حاشية الكتاب معترفاً ببناء إذ، فكيف إذا يدعى بعد ذلك أنها معربة مجرورة بالكسرة على تقدير ظرف مضاف محذوف قبلها في بيت أبى ذؤيب؟

ولم ينس ابن جنى أن يبين منطقياً أن إذ حين إضافتها إلى الجملة تكون مبنية فمن باب أولى إذا يقوى البناء حينما تنقطع هذه الجملة عنها.

و يؤيد ابن جنى رأيه بقراءة الكسائي التي أشرنا إليها في نصه السابق حيث بنى «يوم» من قوله تعالى: «من عذاب يَوْمئِذٍ» على الفتح، لأنه مضاف إلى إذ وهي غير متمكنة، وغير تمكنها يوجب لها البناء الذي اكتسبه الظرف (يوم) المضاف إلى (إذ) لقوّه إذ في البناء.

على أننا نستطيع أن نضيف إلى الأدلة السابقة في بناء إذ غير شاهد أبي ذؤيب، وغير الأدلة التي سجلها ابن جنى في رده على الأخفش نستطيع ان نضيف دليلاً آخر وهو «أن بعض العرب يفتح الذال تخفيفاً فيقول: حينئذ (٢٠).

ومعنى ذلك: أنها لو كانت معربة بالإضافة كما يدعى الأخفش، لما فتحت ذالها، لأنها في موقع المضاف إليه، والمضاف إليه مجرور دائماً.

ولاننسى قبل أن نترك الحديث في بناء إذ أن نذكر أن بعض العرب يبنون الظرف المضاف إلى إذ، لأنه اكتسب البناء منها.

وفي ضوء هذا يقرر ابن السراج في الأصول مانصه: «وأسماء الزمان إذا أضيفت إلى مبنى جاز أن تعربها، وجاز أن تبنيها، وذلك نحو: يومئذ بالرفع، ويومئذ بالفتح» (٢١)

ومعنى ذلك جواز إعراب «يوم» على حساب العامل كأن تقول: هذا يومئذ، بالرفع على الخبرية، وجواز الفتح على البناء كأن تقول: هذا يومئذ بالبناء على الفتح للإضافة إلى مبنى.

و يقوى رأى ابن السراج قراءه «يوم» بالجرّ على الاعراب، والفتح على البناء في قوله تعالى «لويقتدى من عذاب يَوْمئِذٍ بينه» (٢٢).

قال الفخر الرازي: «قرىء (يومئذ) بالجرّ والفتح على البناء لسبب الإضافة إلى غير متمكن» (٢٣).

وينسب أبو حيان الأندلسي في كتابه «البحر المحيط» قراءة الجرّ إلى الجمهور، وقراءة الفتح إلى أبي حيوة (٢٤). ونسبت إلى الكسائي أيضاً في بعض المراجع. (٢٥) ويلاحظ هنا أن الظروف الزمانية المضافة إلى «إذ» مسموعة في: «يوم» و«حين» وذلك بسبب اشتراكهما مع «إذ» في الإضافة إلى الجمل.

غير أن البغدادى في الخزانة ينقل إلينا خبراً مؤداه أنه قد: «وجد بخط صاحب القاموس تركيب هذه الظروف مع إذ، قال: لا يضاف إلى إذ من الظروف في كلام العرب غير سبعة ألفاظ، وهي: يومئذ، وحينئذ، وساعتئذ، وليلتئذ، وغداًئذ، وعشيتئذ، وعاقبتئذ. قيل: ومقتضاه أنه لا يقال: وقتئذ، ولا شهرئذ، ولا سنتئذ.

وقد روى: أوانئذ في شعر الداخل بن حرام الهذلي قال:

دَلَفْتُ لَهَا أَوْأَنْئِذٍ بِسَهْمٍ      وَحَلِيفٍ لَمْ تَحَوُّهُ الشُّرُوجُ (٢٦)  
ويفسر البغدادى معنى البيت فيقول:

«والدليف: سيرُ فيه إبطاء. وحليف: حديد. وتحوُّه: تنقصه، والشروج: الشقوق والصدوع» (٢٧).

وبعد، فنكتفى بهذا القدر من الحديث في بناء إذ لنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ظرفيتها.

**ظرفية إذ ولزومها:**

هل تخرج إذ الاسمية عن الظرفية فتتصرف بمعنى أنها تعرب مبتدأ أو فاعلاً، أو مفعولاً؟

ينص السيوطي في الهمع على أن إذ الظرفية لا «تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأ» (٢٨).

على أن الزمخشري في الكشاف عند تعرضه لتفسير قوله تعالى: «لقد مرّ اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم» (٢٩)، ذكر أنه قرىء: «لَمِينٌ

منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم» (٣٠)، وبينَ الزمخشري أنه في ضوء هذه القراءة يجوز أن تكون إذ «في محلّ الرفع كـ «إذا» في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لِمَنْ مَنَّ الله على المؤمنين وقت بعثه» (٣١).

والناظر في نص الزمخشري يرى أنه في هذه القراءة تقع إذ خبراً، ووقوعها خبراً يجعلها متصرفة، وهو في هذا الرأي قاس إذ على إذا، لأن إذا في رأيه تقع خبراً في قولهم: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً».

والواقع ان الزمخشري خانه التعمير، أو بعبارة أخرى جانبه التوفيق في هذا التقدير، لأن أصل القول السائد هو: أخطب ما يكون الأمير قائماً. فـ «قائماً» في هذا القول نصب على الحال، وتقدير القول هو كما قال الزمخشري: «أخطب ما يكون الأمير إذ كان أو إذا كان قائماً، فـ «إذ» عند إرادة المضى، وإذا عند إرادة الاستقبال، «وقائماً» في القول السائد عند النحويين حال سدّت مسدّ الخبر الذي حذف وجوباً في هذا الموضع، لأن البتداء اسم تفضيل مضاف إلى المصدر المؤول، وفي هذه الحالة تقوم الحال مقام الخبر الذي يحذف وجوباً في هذه الحالة، وتقدير الخبر المحذوف: إذ كان أو إذا كان، وعامل الحال هو ضمير كان التامة، والحال هنا لا تصلح أن تكون خبراً للبتداء الذي هو اسم تفضيل، فـ «قائماً» على هذا التقدير قامت مقاً «اذ كان» لأن في الحال معنى الظرفية كما يقول الصّبان، لأنّ «معنى لقيت زيدا راكباً: لقيته في وقت الركوب، و«إذ كان» سدّ مسدّ المتعلق الذي هو الخبر في الحقيقة كسداد بقية الظروف مسدّ متعلقاتها العامة» (٣٢).

ولا أدري لماذا يقيس الزمخشري إذ على إذا، فالموضع في المثال المذكور صالح لإذ، وإذا معاً، فـ «إذ» كما قلنا: عند إرادة المضى، و«إذا» عند إرادة الاستقبال، فالمثال صالح للمعنيين.

على أن المثال الذي ذكره الزمخشري لا يتكلم به، لأن الخبر محذوف وجوباً أي أنه لا يقال في العربية: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، وإنما القول المنسوب إلى العرب: أخطب ما يكون الأمير قائماً.

ولله درّابن هشام فقد راعه هذا الخطأ التقديرى، كما راعه أن ينسب إلى العرب قولاً لم يقوله.

قال ابن هشام معقّباً على رأى الزمخشري في تقديره لهذه القراءة مانصه: «ولانعلم بذلك قائلاً. ثم تنظيره بالمثال غير مناسب، لأن الكلام في إذ لآفي «إذا»، وكان حقه أن يقول: إذ كان، لأنهم يقدرّون في هذا المثال ونحوه «إذ» تارة، و«إذا» أخرى بحسب المعنى المراد، ثم ظاهره أن المثال يتكلم به هكذا، والمشهور أن حذف الخبر في ذلك واجب، وكذلك المشهور أن إذا المقدرة في المثال في موضع نصب، ولكن جورّ عبد القاهر كونها في موضع رفع تمسكاً بقول بعضهم:

أخطب ما يكون الأمير يوم الجمعة بالرفع، ففاس الزمخشري «إذ» على إذا، والمبتدأ على الخبر» (٣٣).

وإذا كانت إذ لاتقع مبتدأ أو فاعلاً وإنما هي محصورة في الظرفية عند جمهور النحويين، فهل تقع مفعولاً به؟ وذلك ماسنجيب عنه في النقطة التالية:

### هل تقع إذ الاسمية مفعولاً به؟

الناظر لكتاب سيبويه يرى أن «إذ» الاسمية لاتخرج عن الظرفية في رأيه. يقول: «وإذ وهى لما مضى من الدهر» (٣٤)، ومعنى ذلك أن إذ الاسمية عند سيبويه لاتخرج عن الظرفية، ولكونها ظرفاً فإنها لاتعمل شيئاً فيما بعدها كما تعمل إن الشرطية، ولهذا، فإن دخولها على الاسم أولى بها من دخولها على الفعل. قال سيبويه: «فتركت الأسماء بعدها على حالها كأنه لم يذكر قبلها شيء... إذ كانت لاتغير مادخلت عليه» (٣٥).

ويتبع نهج سيبويه في ظرفية إذ الجمهور قالوا: «لاتكون إلا ظرفاً نحو: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (٣٦)، ومضافاً إليها الظرف كقوله تعالى: «بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا»، (٣٧)، «يومئذ تحدث أخبارها» (٣٨)، «وأنتم حينئذ تنظرون» (٣٩).

وفي رأسي أنّ حضر إذ في الظرفية فقط حجر على الاتساع في المعاني  
وتضييق على التنوع في الأساليب .

فهناك أساليب في العربية وضوح إذ فيها مفعولاً به أقوى من تقدير  
الظرفية فيها.

إن إذ اسم، وما الذي يمنع من الاتساع فيخرج عن دائرة الظرفية إلى  
دائرة المفعولية؟ وأيها أولى: اللجوء إلى التقدير في الإعراب، أو الإعراب بدون  
تقدير؟

أعتقد أن التحويين وضعوا في أصولهم التحوية: أن مالا يحتاج إلى تقدير  
أولى مما يحتاج إلى تقدير.

فمن مجيء إذ مفعولاً به قوله تعالى: «واذكروا إذ كنتم قليلاً» (٤٠)،  
وقوله تعالى: «واذكروا إذ أنتم قليل» (٤١).

ومع وضوح المفعولية في هاتين الآيتين نجد جمهور النحويين يقدر  
فيقولون: «المفعول محذوف، وإذ ظرف، عامله ذلك المحذوف، والتقدير:  
«واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم» (٤٢).

وتطالعنا آيات كثيرة في أوائل القصص تشتمل على إذ بدون أن يسبقها  
عامل فيها، وأيسر إعراب لـ «إذ» هذه أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره:  
«اذكر»، واختيار هذا الفعل بخاصة، لأن بعض الآيات القرآنية الأخرى التي  
اشتملت على إذ ذكر هذا الفعل قبلها كالأيتين السابقتين، والقرآن الكريم يفسر  
بعضه بعضاً.

ومن الآيات التي تعرب فيها إذ مفعولاً للفعل «اذكر» محذوفاً.

أ — «واذ قال ربك للملائكة» (٤٣).

ب — «واذ قلنا للملائكة»، (٤٤).

ج — «واذ فرقنا بكم البحر» (٤٥).

وعلى الرغم من وضوح مفعولية إذ في هذه الآيات فإن الجمهور يقدر  
ون

أن إِدُ في هذه الآيات ظرف لـ: «اذكر» محذوفاً، وليست مفعولاً به لهذا الفعل المحذوف.

وقد ردّ عليهم ابن هشام ردّاً فيه قوة الحق، وسلامة الدليل، ووضوح الحجّة. قال: «هذا وهُمّ فاحش لاقتضائه حينئذ الأمر بالذكر في ذلك الوقت مع أن الأمر للاستقبال وذلك الوقت قد مضى قبل تعلق الخطاب بالمكلفين متاً، وإنما المراد ذكر الوقت نفسه لا الذكر فيه» (٤٦).

على أن أبا البقاء أيوب بن موسى الحسيني اللغوي وضع الأمر في نصابه حينما بين أن إِدُ في هذه الآيات التي أضمرت أفعالها مفعول به على سبيل التجوّز. قال: «كل ماورد في القرآن: «واذ» «فاذكر» فيه مضمراً، أي اذكر لهم، واذكر في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام، و«إِدُ» منصوب به وعليه اتفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه.

ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوّز مع أنه لازم الظرفية فعَدَلُوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان مظرافية المضاف إليه» (٤٧).

وكما تقع إِدُ مفعولاً به قد تقع بدلاً من المفعول به، والمثال على ذلك قوله تعالى: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت» (٤٨)، فـ «إِدُ» بدل اشتمال من مريم على حدّ البدل في: «تَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» (٤٩) وقوله تعالى: «اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء» (٥٠).

قال ابن هشام معلقاً على الآية الأخيرة: «يحتمل كون إِدُ ظرفاً للنعمة وكونه بدلاً منها» (٥١).

هل تقع إِدُ حالاً؟

قال السيوطي في «معترك الأقران»: «وذكر بعضهم أنها تأتي للحال نحو: «ولا تعملون من عملٍ إلّا كُنّا عليكم شهوداً إذ تُفِيضُونَ فِيهِ» (٥٢).

## دراسة تطبيقية لأسلوب إذ في القرآن الكريم :

يواجهنا المفسرون في كتبهم المشهورة بتقديرات مختلفة لإعراب : «إذ» التي تعددت في القرآن الكريم، ومن خلال هذا التعدد اختلفت الأساليب وكشرت التقديرات. وعلى سبيل المثال نذكر طائفة من أساليب إذ في القرآن الكريم مع توجيهات المفسرين لها:

أ - من ذلك قوله تعالى :

«إذ قالت امرأة عمران رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بطني مُحَرَّرًا». (٥٣)

قال الطبرسي في تفسيره: «في موضع» «إذ قالت» أقوال :

أحدها: أنه نصب بـ «اذكر» عند الأخفش والمبرد.

والثاني: أنه متعلق بـ «سميع عليم» [في الآية التي قبلها]، فيعمل فيه معنى الصفتين، تقديره: والله مدرك لقولها ونيتها إذ قالت. عن علي بن عيسى.

والثالث: أنه متعلق بـ «اصطفى [في الآية ٣٣]»، عن الزجاج.

الرابع: أن «إذ» زائدة فلا موضع لها من الإعراب عن أبي عبيدة. وهذا خطأ عند البصريين» (٥٤).

ب - ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك» (٥٥) قال الطبرسي: إذ

هذه معطوفة على إذ في قوله: «إذ قالت امرأة عمران» أو يكون معناه: اذكر إذ قالت الملائكة» (٥٦).

ج - ومن ذلك قوله تعالى :

«وما كُنت لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ» (٥٧).

قال أبو علي: إذ في قوله: «إذ يُلقُونَ» متعلق بـ «كنت»، كأنه قال: «وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة»، وهذا إنما يجوز عندي إذا قدرت إذ الثانية بدلاً من

الأولى، فإن لم نقدره هذا التقدير لم يحز، وإنما يجوز البديل في هذا إذا كان وقت اختصاصهم وقت قول الملائكة ليكون البديل المبدل منه في المعنى» (٥٨).

د — ومن ذلك قوله تعالى :

«إذ قال الله يا عيسى إني متوحيك ورافئك إني» (٥٩).

قال الطبرسي: العامل في إذ قوله: «ومكروا، ومكر الله، والله خبير الماكرين» (٦٠) «إذ قال».

ويحتمل أن يكون تقديره: ذلك إذ قال الله، وتمثيله: ذلك واقع إذ قال الله، ثم حذف: «واقع» وهو العامل في إذ، وأقيمت إذ مقامه» (٦١).

هـ — ومن ذلك قوله تعالى :

«وإذ غدوت من أهلك» (٦٢).

قال الطبرسي: «العامل في إذ محذوف، وتقديره: واذكر إذ غدوت. وقيل: هو عطف على ما تقدم في السورة من قوله: «قد كان لكم آية في فئتين التقتا»، [الآية ١٣ آل عمران | أي في بصرة تلك الطائفة القليلة على الطائفة الكثيرة إذ غدا النبي صلى الله عليه وسلم. عن أبي مسلم.

وقيل العامل فيه قوله: «محيط»، وتقديره — والله أعلم بأحوالكم وأحوالهم إذ غدوت من أهلك» (٦٣).

و — ومن ذلك قوله تعالى :

«إذ تُضِعِدون ولا تلوون على أحد» (٦٤).

قال الطبرسي: قوله: إذ تضعِدون» العامل في إذ قوله: «ولقد عفا عنكم» (٦٥)

وقيل أن ننهي هذه الدراسة التطبيقية لـ «إذ» في القرآن الكريم نود أن نشير إلى أن الزركشي في «البرهان» بين لنا أنه: «حيث وقعت إذ بعد: «واذكر» فالمراد بها الأمر بالنظر إلى ما اشتمل عليه ذلك الزمان لغرابة ما وقع فيه، فهو جدير بأن ينظر فيه

وقد أشار الى هذا الزمخشري في قوله تعالى: «واذكُر في الكتاب مريم إذ انتبذت» (٦٦)، وقوله: «واذكُر في الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً إذ قال لأبيه» (٦٧).

كذلك نضيف إلى هذه الإشارة إشارة أخرى، وهي أن إذ وقعت بدلاً في بعض الأساليب حيث وقعت بدلاً من المفعول به في قوله تعالى: «إذ انتبذت» (٦٨) حيث أعريت إذ بدل اشتمال من مريم في قوله تعالى: «واذكُر في الكتاب مريم»، وبعض آيات أخرى سبق ذكرها. ومع ذلك فإن إعراب إذ بدلاً من «اليوم» في قوله تعالى: «ولن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ» (٦٩) يترتب عليه إشكال يحتاج إلى حل.

وقد وفق ابن جني إلى هذا الحل حينما قال: «راجعت أبا علي مراراً في قوله: ولن ينفعمكم اليوم إذ ظلمتم» مستشكلاً إيدال إذ من اليوم، فأخر ما تحصل منه: أن الدنيا والآخرة متصلتان، وأنها في حكم الله سواء فكانَ اليوم ماضٍ» (٧٠).

إذ الظرفية هل تدلّ على المستقبل؟:

لم يصرح سيبويه في كتابه بوقوع إذ دالة على المستقبل، وكل ما ذكره في شأنها: أنها لما مضى من الدهر. (٧١).

ومعنى ذلك أنّ إذ لا تستعمل عند سيبويه إلا ظرفاً لما مضى من الدهر. ويقرّر سيبويه حكماً أسلوبياً لكل الأزمنة الماضية في ضوء دراسته لـ «إذ» التي تدلّ على الزمن الماضي، فكل زمن في نظره أضيف إلى الجملة الاسمية صحت بناؤه، واستقام تركيبه إذا كان بمعنى إذ، ومالم يكن بمعنى إذ، فإن إضافته إلى الجملة الاسمية خروج عن منطق الصواب، وبعد عن سلامة التركيب.

يقول سيبويه: «وسألته عن قوله في الأزمنة: كان ذاك زمنَ زيدَ أميرٍ، فقال: لما كانت في معنى: إذ على ما قد عمل بعضه في بعض، ولا يغيرونه، فشبها هذا بذلك، ولا يجوز هذا في الأزمنة حتى تكون بمنزلة إذ. فإن قلت: يكون هذا يوم

زيدٌ أميرٌ كان خطأً، حدثنا بذلك يونس عن العرب، لأنك لا تقول: يكون هذا إذا زيدٌ أميرٌ» (٧٢) ويضع. سبويه الحدود الفاصلة بين إذ التي تدل على الماضي، وإذا التي تدل على المستقبل: أن الزمن إذا أضيف إلى الفعل أو الاسم كان في معنى إذ، لأنه وقع. أما إذا لم يقع، فإن الزمن لا يضاف إلى الأسماء، وإنما يضاف إلى الجمل الفعلية.

وبهذا التفسير الواضح حدّد سبويه وظيفة إذ، كما حدّد وظيفة إذا حينما قال :

«جملة هذا الباب أن الزمان إذا كان ماضياً أضيف إلى الفعل، وإلى الابتداء والخبر، لأنه في معنى إذ، فأضيف إلى ما يضاف إليه إذ. وإذا كان لما لم يقع لم يضاف إلا إلى الأفعال، لأنه في معنى إذا، وإذا هذه لا تضاف إلا إلى الأفعال» (٧٣).

واضح إذن من هذين التصيين أن إذ عند سبويه لا تقع دالة على الاستقبال. وتابع سبويه في هذا الرأي جمهور النحويين.

ومع تحليل سبويه لمنع إذ من الاستقبال، وهو تحليل له قوته ومنطقيته فإن بعض المتأخرين من النحويين لم يوافقوا سبويه على رأيه، قائلين: إن إذ تقع دالة على الاستقبال في بعض الأساليب.

قال ابن قاسم المرادى في كتابه: «الجنى الدانى» مشيراً إلى مذهب المتأخرين في دلالة إذ على معنى الاستقبال، وأنها في هذه الحالة بمنزلة إذا، قال: «إذ يكون ظرفاً لما يستقبل من الزمان بمعنى إذا، ذهب إلى ذلك قوم من المتأخرين منهم ابن مالك، واستدلوا بقول الله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم» (٧٤)، وبآيات أخرى (٧٥) كقوله تعالى: «يومئذ تحدث أخبارها» (٧٦).

ومن المؤيدين لوقوع إذ بمعنى الاستقبال ابن هشام، فقد احتج للمثبتين لـ «إذ» معنى الاستقبال بقوله تعالى: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم» قائلًا: «فإن «يعلمون» مستقبل لفظاً ومعنى لدخول حرف التنفيس عليه، وقد أعمل في إذ، فيلزم أن يكون بمنزلة إذا» (٧٧).

وله بسر اس هشام أن يوضح رأى الماعبر بقوله

«والجمهور لا يشبتون هذا القسم، ويجعلون الآية [السابقة] من باب  
«ويصح في الضور» (٧٨)، أعسى من نزيل المستقبل الواجب الوقوع منزلة ما قد  
وقع» (٧٩).

والرأى الذي أميل إليه هو جواز وقوعها موقع إذا الدالة على المستقبل، لان  
الأدوات يقع بعضها موقع بعض لاعتبارات بلاغية تدرك من الموقف، وتوضح من  
السياق، ويشير إليها الأسلوب، بذلك على ذلك «أن الأمور المستقبلية لما كانت في  
إخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ الماضي» (٨٠).

### إذ الظرفية مضافة إلى الجمل :

سبق أن بينا أن إذ الظرفية تضاف إلى الحملتين، الاسمية والفعلية، غير  
أن سببها يجعل الحمل المبدوءة بأسماء بعدها أولى من الجمل المبدوءة بأفعال.  
فال سببها «فتركت الأسماء بعدها على حالها، كأنه لم يذكر قبلها شيء فلم  
يجاوروا ذاتها، إذ كانت لا تغير مادخلت عليه، فيجعلوا الاسم أولى بها من  
الفعل» (٨١)

وإصافه إذ إلى الحملة إضافة لازمة، لأنها لا توحد في أساليب الكلام إلا  
مصافة

وإضافتها إلى الجملة الاسمية كقوله تعالى. «وإذ كُروا إذ أنتم  
قليل» (٨٢)

وإضافتها إلى الحملة الفعلية على النحو التالي

أ - حملة فعلية فعلها ماضٍ لفظاً ومعنى.

مثل قوله تعالى «وإذ قال ربك للملائكة»، (٨٣)، «وإذ أنشأ إبراهيم  
رثه بكلمات» (٨٤).

ب — جملة فعلية فعلها ماضٍ معنى لالفظاً:

مثل قوله تعالى : «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه، وأنعمت عليه» (٨٥)

هذا وقد اجتمعت الجملة الاسمية مع الجملة الفعلية في مثالها المذكورين في قوله تعالى : «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن» (٨٦).

قال ابن هشام محلاً إذ في هذه الجملة:

«الأولى ظرف لـ «نصره» والثانية بدل منها، والثالثة، قيل : بدل ثان وقيل: ظرف لـ «ثاني اثنين». وفيهها، وفي إبدال الثانية نظر، لأن الزمن الثاني والثالث غير الأول، فكيف يُبدل لان منه؟

ثم لا يعرف أن البدل يتكرر إلا في بدل الإضراب، وهو ضعيف لا يحمله عليه التنزيل .

ومعنى ثاني اثنين: واحد من اثنين، فكيف يعمل في الظرف، وليس فيه معنى فعل؟

وقد يجاب بأن تقارب الأزمنة ينزلها منزلة المتحدة، أشار الى ذلك أبو الفتح في (المحتسب)، والظرف يتعلق بولهم الفعل، وأيسر روائحه» (٨٧).

وفي مجال اضافة إذ إلى الجملة، وأن هذه الإضافة لازمة أزال ابن هشام شبهة ورود إذ في بعض الأساليب بدون إضافة إلى الجملة في الظاهر. قال ابن هشام: وقد يحذف أحد شطري الجملة فيظن من لاخيرة له أنها أضيفت إلى الفرد كقوله:

هل تَرَجِمَنَّ لِيَالٍ قَد مَضَيْنَ لَنَا وَالْعَيْشُ مُنْقَلَبٌ إِذْ ذَاكَ أَفْنَا (٨٨)  
والتقدير: إذ ذاك كذلك.

وقال الأخطل:

كانت منازل آلاف عهدتهم إذ نحن إذ ذاك دون الناس إخوانا (٨٩).

«نحن» و «ذاك» مبتدآن حذف خبرهما، والتقدير: عهدتهم إخواناً إذ نحن متآلفون، إذ ذاك كائن.

ولا تكون إذ الثانية خبراً عن نحن، لأنه زمان، «ونحن» اسم عين، بل هي ظرف للخبر المقدّر، و«إذ» الأولى ظرف لـ «عهدتهم».

وقالت الخنساء:

كان لم يكونوا جسمي يُتَقَى إذ الناسُ إذ ذاك من عزباً (٩٠)  
قال ابن هشام: إذ الأولى ظرف لـ «يُتَقَى» أول «حَمِي»، والثانية ظرف لـ «بز»،  
ومن: مبتدأ موصول لا شرط، لأن «بز» عامل في إذ الثانية، ولا يعمل ما في حيز  
الشرط فيما قبله عند البصريين.

و«بز»: خبر «من» والجمله: خبر الناس، والعائد محذوف أى من  
عزمنهم..

ولا يكون إذ الأولى ظرفاً لـ «بز»، لأنه جزء الجملة التي أضيفت إذ  
الأولى إليها، ولا يعمل شيء من المضاف إليه في المضاف، ولا إذ الثانية بدل من  
الأولى، لأنها تكمل بما أضيفت إليه، ولا يتبع اسم حتى يكمل.

ولا تكون خبراً عن الناس، لأنها زمان، والناس اسم عين، «وذاك»:  
مبتدأ محذوف الخبر، أى كائن، وعلى ذلك فقس «(٩١)».

وإذا أضيفت إذ إلى الجمل الفعلية، فإن كان الفعل مضارعاً حسن  
تقديمه وتأخيرته تقول مثلاً: جئت إذ يحاضر الأستاذ، فهي مضافة إلى جملة فعلية  
فعلها مضارع، وتقول: جئت إذا الأستاذ يحاضر، فهي مضافة إلى جملة اسمية،  
وكلا الأسلوبين حسن، لا يتميز أسلوب عن أسلوب، ولكن الأمر يختلف حينما  
تضاف إذ إلى جملة تشتمل على فعل ماضٍ تقول مثلاً: جئت إذ حاضر الأستاذ،  
فهى مضافة إلى جملة فعلية فعلها ماضٍ، وهذا الأسلوب مستساغ نحوياً، ولكن إذا  
قيل: جئت إذ الأستاذ حاضر فإنه أسلوب ضعيف وإن كان جائزاً نحوياً. السبب  
في هذا أن إذ ظرف للزمن الماضي، فإذا كان في الجملة المضاف إليها فعل ماضٍ

استحبوا أن يلي إذ، لأن إذ للماضي و«حاضر» للماضي، فهناك اتفاق بينهما في الزمن، ومشكلة بينهما في الماضي يقول ابن يعيش :

«وإذا كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيرته نحو: جئتك إذ يقولون زيد، وإذ زيد يقوم، وإذا كان ماضياً لم يحسن تأخيرته، لا يكادون يقولون : إذ زيد قام، وذلك لأن إذ ظرف زمان ماضٍ، فإذا كان معك فعل ماضٍ استحبوا إيلاءه إياه لتساكل معناهما» (٩٢).

### ثانياً : إذ بن الاسمية والحرفية

يذكر النحويون أن إذ قد تخرج عن الاسمية لتكون حرفاً يؤدي ما تؤديه حروف المعاني، ومع ذلك فهم ليسوا على اتفاق على هذه الحرفية، لأن بعضهم يرى أنها لا تخرج عن الظرفية. وإذ هذه لها معانٍ عديدة منها :

### أ - إذ التعليلية :

يمثل النحويون لـ «إذ» التعليلية بقول الله تعالى : «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون»، (٩٣) أي ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم في الدنيا» (٩٤).

وقد اختلف النحويون في إذ هذه هل هي حرف أو اسم ؟

ينسب السيوطي في «معترك الأقران» إلى سيبويه أنه يرى أن إذ التعليلية حرف (٩٥).

ويذهب آخرون : إلى أنها ظرف بمعنى :، وقت، والتعليل في رأيهم مستفاد من قوة الكلام وسياقه، وليس من لفظ : إذ قال السيوطي عند ذكره لـ «إذ» التعليلية : «هل هي حرف بمنزلة لام العلة أو ظرف بمعنى الوقت، والتعليل مستفاد من قوة الكلام لامن اللفظ ؟ قولان المنسوب إلى سيبويه الأول» (٩٦).